«حلم» يتحقق في صالة «ألف نون»

علي حسين لـ«الوطن»: لوحاتي ليس لها علاقة بزمان ولا مكان.. فاللوحة التي نراها اليوم لا تتغير

بثينة شعبان: سعيدة بوجود هذه الألوان الصاخبة وسعيدة بالحلم والحياة والأمل

سارة سلامة- تصوير: طارق السعدوني

في صالة «ألف نون» يولد الحلم متناثراً عبر لوحات حاكت الطفولة والبيت والجيران والسماء الملأى بالنجوم، ونور قمر يسطع من بعيد يرسل ضوءه بشكل خجول على الحيّ، هذا ما صوره الفنان التشكيلي علي حسين بعد غياب لسنوات، وقدم في معرض باسم «حلم» لوحات متجددة بألوان قوية ودافئة تتمازج بين الأحمر والأزرق والذهبي، يصور من خلالها المرأة والأيقونة ومدينة حلب وبورتريه لصديقه كتحية فنية، هو اليوم يعيشه حقيقة من خلال ٣٦ لوحة زيتية بأحجام تراوحت بين الصغير والمتوسط والكبير، وعمرها بين عام ٢٠١٦ حتى الآن.

حلم الطفولة

وفي تصريح خاص لـ«الوطن» قال الفنان التشكيلي علي حسين: «إن موضوع الحلم رسمته قبل أي فنان وهو الأول في سورية والوطن العربي، وتناولت الحلم بغزارة منذ زمن طويل، هو حلم له علاقة بالطفولة وبسطح بيتنا في ليل حالك عندما كنت أتأمل السماء والنجوم، بقيت هذه الصورة في ذاكرتي لتتحول فيما بعد إلى لوحات».

وأضاف حسين: إنني «استخدمت الألوان الدافئة والمتناقضة التي تخلق عملاً فنياً جميلاً، والمرأة موجودة بقوة في أغلب لوحاتي، ارسم المرأة بعيداً من أي شيء، من الشعر إلى المنديل وكل تفاصيل المرأة الريفية وزيّها».

ويبين حسين أن: «لوحاتي ليس لها علاقة بزمان ولا مكان، فاللوحة التي نراها اليوم أو بعد سنوات لا تتغير المشاعر تجاهها، وهي بعيدة عن الأجواء المغلقة، وتكون دائماً ضمن إطار التكوين المفتوح وعناصر الهواء الطلق».

وبالنسبة للأيقونات قال حسين: «هو موضوع متعلق بتراثنا الحلبي، أما رسالة المعرض فهي: «بالتأكيد أن مقاطع الفيديو عبرت عن الحرب بطريقة أفضل من الرسم، وشاهدنا في الواقع وعلى الشاشات المأساة الحقيقية التي لا يستطيع الفنان مهما حاول التعبير خلالها بريشته بشكل دقيق، ولذلك أعتبر أن مهمتي نقل الصورة الجميلة عن الحياة، صورة فيها فرحة وألوان وحلم بأيام قادمة أجمل».

تجربة خاصة

ومن جهته قال الناقد سعد القاسم: «إن تجربة علي خاصة وفريدة ومتطورة وغير مكررة في الفن التشكيلي السوري، من خلال أشكال متعددة وغنية، فهو يعمل بواقعية يستهويها المتلقي، ويستطيع العمل على المواءمة بين الرؤية الفنية، وفي لوحاته شيء من التأمل والهدوء، وحالة تدعو للسلام والسكينة وتترجم طبيعته الحقيقية، والأيقونة هي جزء من تاريخنا التشكيلي الفني وهي مرحلة أساسية جداً، والمرأة موضوع محبب دائماً عند أي فنان تشكيلي، وهي هم أساسي للرجل وتشغل الجانب الجميل من تفكيره، وغيابها هو الذي يلفت النظر أكثر من حضورها، وأيضاً تميزت اللوحات بحضور لوني واضح، ونرى أن الفنان علي متأثر بتاريخ مدينة حلب وبالأيقونات وبالحالة الإنسانية العميقة وهي حالة موجودة عند أكثر من فنان في حلب».

التمازج والتلاقي

وبدوره قال مدير الصالة بديع جحجاح : «إنه وفي فضاء (ألف نون) استقبلنا علي حسين وهو فنان أصيل ومتجذر بالأرض، ونلاحظ هذا الشيء من ارتباطه بالمرأة وهي رمز لسورية وبهذا التجلي نحكي عن حلم الأنوثة وحلم الأرض واللون والانبعاث الجديد والخروج من هذا القبح الممارس على هذه البلاد الآمنة، والولوج إلى عالم الأنوثة من خلال اندماجها في عالم الطبيعة والحلم المسكون فيه، وفي (ألف نون) استطعنا عمل جسر من العلاقة الراقية، وهذا التمازج والتلاقي يبشر بأن الحلم يصبح حقيقة من خلال انتصارات الجيش العربي السوري والثقافة ولمسات القمر الموجودة في لوحات الفنان علي، وفي بعض الأماكن وجدنا الأنثى بشكل بروفيل جانبي أو بمواجهة مباشرة تخبرنا بسردات قصص كثيرة، وفي المحصلة هذا المحتوى يمثل سورية الجميلة والنبيلة».

وبيّن جحجاح:«أن اللون يعطي قيمة مضافة للعمل التشكيلي، والحلم عند علي حسين هو حلم ملون، وموجود من خلال المثلثات والأشكال الموشورية وكأننا داخل بنية فيها تعشيق من الزجاج الملون، وأنا بدوري لا أتحدث إلا عن الجمال وأهم ما في أعمال علي أنها تأخذك عبر الأنثى، ولأن هذا البلد عظيم ومقدس يجب أن نعمل على قيمنا الروحية وإعادة إحيائها من جديد بعيداً من الهجمة المادية في كل الأشياء ونعود إلى المشرق والدفء».

شخص متجدد

وقال الفنان التشكيلي نبيل السمان: «إن الفنان علي حسين هو من الجيل الثاني أو الثالث بالنسبة للتشكيليين في سورية، وهو إنسان مجتهد يعمل كثيراً، وتمثل المرأة والبيئة عنصرين أساسيين في لوحاته، واليوم نرى شيئاً جديداً في عمله ونعرف تاريخ تجربته، وكيف أتت وما العناصر التي يحاول أن يعتمدها بلوحته، والجديد أنه اعتمد على قياسات كبيرة إلا أن الصالة لم تخدمه كثيراً، فالأحجام الكبيرة بحاجة إلى فراغات وفضاء، إلا أن الشغل على اللون مهم والشغل على عجائن اللون كذلك، والتجربة هي بنسق واحد، نحن نعرفه ليس بعيداً كتطور للتجربة واليوم البحث عن التنويعات في اللون والبحث عن توليفات لونية جديدة وتمثل عنده شيئاً مهماً وأيضاً الضوء ولعبة الظلمة والنور في اللوحة مهمة كثيراً، وهناك شيء سعيد وهناك ألوان، ويأخذنا إلى حالة روحانية معينة وحالة تأمل تجعل الذي حدث في سورية جعل كل الفنانين يحنون إلى زمن الأيقونة».

وأضاف السمان: «هو ينتصر للإنسان الذي صبر وتحمل كل تلك الظروف لأن الذي صبر هو بمرتبة القديس، وأيضاً في بورتريه خصّ الفنان سعد يكن بلوحة، لأن الاثنين ملونان وما يجمعهما ليس طريقة العمل إنما اللون، هي تحية من فنان إلى فنان عاصرا الزمن نفسه وكانا شهوداً على إنجازات بعضهما، وأخيراً أقول: إنه شخص متجدد وأتمنى أن يفاجئنا بأعمال تحمل الجديد دائماً».

والفنان علي حسين درس الفن دراسة خاصة وأقام ٢١ معرضاً فردياً داخل سورية وخارجها، وافتتح صالة سومر للفنون في حلب بين عامي ١٩٨٣ و١٩٨٦ ورسم الموتيفات للصحافة السورية والعربية، وصمم العديد من أغلفة الكتب وهو عضو في اتحاد التشكيليين السوريين.

> بديع جحجاح: فنان أصيل ومتجذر بالأرض ومرتبط بالمرأة التي تعتبر رمزاً لسورية

ثقافتنا السورية

وفي تصريح قالت المستشارة السياسية والإعلامية في رئاسة الجمهورية الدكتورة بثينة شعبان: «سعيدة اليوم بوجود كل هذه الألوان الصاخبة وسعيدة بالحلم والحياة والأمل، هي تعبر عن ذوق الفنان ومحبته وتعبيره بأن المرأة هي جزء أساسي وجميل في هذه الحياة، ويمكن إيصال أفكار عديدة من خلالها، والحقيقة عندما أرى إعلانات المعارض الفنية في الطرقات أفكر فيما سيقوله الأجانب الزائرون في سورية، وبالتأكيد هم سيفاجؤون بعد سنوات الحرب بأننا نملك من يرسم بهذه الطريقة وبهذه الألوان وبهذه الثقافة، مستخدماً الرموز، هذه هي ثقافتنا السورية، والفنان علي يمثل حصيلة تراث ثقافي وروحي آمن بالمستقبل، ويتحدى ويتجاوز كل زمان ومكان، ويزرع للأجيال القادمة حلماً بأننا باقون ومنتجون، ولا يستطيع أحد اقتلاعنا من هذه الأرض الطيبة».

أغلاق عدة مكتبات في الوسط التجاري بدمشق

نبيل تللو

لم يكن يوجد بدمشق مكتبات عامة لحفظ وإعارة الكتب بالشكل المتعارف عليه اليوم، فقد كانت الكتب تُحفظ في المساجد والكنائس وبيوت الدمشقيين، وتُعَدُّ المكتبة الظاهرية، الواقعة في مدينة دمشق القديمة قرب الجامع الأموي ضمن مبنى أثري، أولى المكتبات العامة الشاملة بدمشق، أنشأها الملك الظاهر بيبرس عام ١٢٧٧ م لتكون المدرسة الجامعة لبلاد الشام جمعاء، وفي عام ١٨٨٠ م استطاع والي دمشق مدحت باشا الحصول على أمرٍ سلطاني بجمع الكتب والمخطوطات من المكتبات الوقفية، وقام الشيخ طاهر الجزائري بزيارة كبريات الأسر الدمشقية وإقناع أصحابها بتقديم مقتنيات مكتباتهم هديةً للمكتبة الظاهرية، وهي: المكتبة العمرية، مكتبة عبد الله باشا العظم، مكتبة الخياطين، مكتبة الملا عثمان الكردي، المكتبة السليمانية، المكتبة المراديَّة، المكتبة السميساطيَّة، مكتبة علي الدفتري، مكتبة الأوقاف، المكتبة الياغوشيَّة، مكتبة جامع يلبغا، مكتبة المدرسة الأحمديَّة؛ وهذا ما شجّع كثيراً من الناس على تقديم مكتباتهم إهداءً، وهذه الكتب شكّلت نواتها الأولى من الكتب. وبتاريخ ١٩٣٠/٨/٢٥ صدر قرار رئيس مجلس الوزراء السوري رقم ٢٣٧٥ الذي يُلزم الطابع بوضع نسختين من مطبوعه في المكتبة الوطنية.

في عام ١٩٨٣ صدر المرسوم التشريعي رقم ١٧ القاضي بتأسيس مكتبة الأسد مكتبة وطنية للقطر العربي السوري، وشكّلت مخطوطات المكتبة الظاهرية وبعض كتبها نواتها الأولى من الكتب، وبدأت باستقبال القراء عام ١٩٨٤.

وإضافة إلى هاتين المكتبتين، فإن كل الإدارات الحكومية والجامعات والكليات والمعاهد والمراكز الثقافية والمنظمات والمدارس وبعض المساجد والكنائس تضمّ مكتبة.

كانت هذه المكتبات تشهد إقبالاً لافتاً على ارتيادها ومطالعة الكتب فيها، غير أن هذا الأمر قد تراجع في السنوات الأخيرة بشكلٍ ملحوظ.

أوائل المطابع ودور النشر بدمشق

بدأ ظهور المطابع بدمشق منذ خمسينيات القرن التاسع عشر، ففي عام ١٨٥٥ م ظهرت أول مطبعة: «المطبعة الحفنيَّة»، وسميت نسبة لصاحبها «محمد الحفني» الذي اشتراها عام ١٨٨٢م، وتلتها عام ١٨٦٤م «مطبعة ولاية سورية»، ثمّ «المطبعة العسكرية» التي كانت مختصة باللوائح العسكرية، فـ: «المطبعة الخيرية» عام ١٨٨٠م، وفي العام نفسه ظهرت «مطبعة نهج الصواب»، وفي عام ١٨٩٨م ظهرت: «المطبعة العلمية» التي دُعيت فيما بعد بمطبعة الفيحاء، و«المطبعة الحَميدية»، وفي عام ١٩٣٦ تأسّست «مطبعة الإنشاء»، وغير ذلك من المطابع، وقد أصدرت كل هذه المطابع كتباً وصحفاً ومجلات.

وحتى تلك الفترة لمْ يكن يوجد بدمشق مفهوم «دار نشر» التي تتولى طبع الكتب وتوزيعها، وبقي الأمر كذلك حتى عام ١٩٣٤ عندما تأسس «مكتب النشر العربي»، وتلاه: «دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر» ١٩٣٩، دار الرواد ١٩٥٢، مكتبة عبيد (وكانت في منطقة الحريقة)، وهذه الدور مغلقة منذ سنوات، دار دمشق ١٩٥٤، دار الفكر ١٩٥٧، وهاتان الداران ما زالتا تعملان ولكن بشكلٍ أضعف من السابق، وتُعَدّان من أقدم دور النشر العاملة بدمشق، أما وزارة الثقافة فما تزال تعمل باستمرار منذ عام ١٩٦٠، واستمر عدد دور النشر بالتزايد حتى بلغ عددها في سورية المسجلة رسمياً بسجلات وزارة الإعلام نحو ٤٠٠ دار حتى عام ٢٠١١، أغلبها بدمشق، وقلة من هذه الدور ناشطة بعملها وتصدر كتباً كثيرة، على حين أن أغلبها لا يصدر إلا عدداً محدوداً من الكتب، وهذا ما يعبر عنه: (دار نشر قوية ودار نشر ضعيفة)، بعضها له مطابع خاصة به، وأكثرها يطبع كتبه في مطابع مستقلة. أشير إلى أن الحديث هنا هو عن الكتب فقط، أما الصحف والمجلات فلها حديثٌ آخر، وأشير أيضاً إلى أن الكتب المنشورة في هذه الدور تشمل فقط الكتب الثقافية العامة، مختلف الاختصاصات، مؤلفة ومحققة ومترجمة، التي يقرؤها عامة الناس خياراً ثقافياً وغير ملزمين، كباراً وصغاراً ومن الجنسين، وكانوا كثرة، أما الكتب المدرسية والجامعية الواجبة القراءة فتتولى طباعتها إدارات حكومية.

مكتبات دمشق

والمقصود بالمكتبة هنا المكتبة التي تستلم الكتاب من المطبعة أو دار النشر وتبيعه للقراء، وقد كانت منتشرة في مختلف أنحاء دمشق، ولاسيما في وسطها التجاري، ثم أخذت بالتناقص. وأدرج هنا المكتبات التي كانت تعمل حتى سنواتٍ قليلة مضت، ثم أغلقت في تواريخ مختلفة.

وإغلاق هذه المكتبات وغيرها لا يعني أن مهنة بيع الكتب قد توقّفت، فما زال بدمشق مكتباتٌ عديدة تعمل بنشاط، ومنها مكتبة النوري ومكتبة نوبل ومكتبة دار البشائر ومكتبة النهضة العربية ومكتبات منطقة الحلبوني، ولكن بأرباحٍ أقل، فالإقبال على شراء الكتب متدنٍ، كما نرى بأعيننا، وكما ذكر لنا أصحابها. غيرَ أن أكثر ما ساعد على تنشيط الكتاب بدمشق، تأليفاً وطباعةً وتوزيعاً، ووضعه في مكانه اللائق، وجعله يتبوأ مكاناً رفيعاً، هو:

– معرض الكتاب بمكتبة الأسد الوطنية: أُقيم أول معرض للكتاب بمكتبة الأسد الوطنية بدمشق خلال الفترة ١–١٩٨٥/١٠/١٠، ومع أنه كان محدوداً بعدد دور النشر التي شاركت به، التي استوعبتها قاعةٌ داخلية واحدة ضمن مبنى المكتبة، إلا أنه شهدَ إقبالاً لافتاً بزواره وحجم مبيعاته، ما شجّع دور النشر المحلية والعربية والمكتبات المستوردة للكتب الأجنبية على المشاركة في السنوات التالية.

أُقيم المعرض بدورته الثانية بقسمٍ من حديقة المكتبة، واستمرت مساحته بالتزايد دورةً إثر دورةٍ حتى غطت كامل الحديقة نتيجة تزايد عددٍ دور النشر المحلية والعربية، ووصل الاتساع ذروته عام ٢٠٠٤ عندما عجزت حديقة المكتبة عن استيعاب كامل الأجنحة، وتمّت تغطية نقص المساحة في الحديقة المجاورة للمكتبة على الطرف الثاني من شارع عدنان المالكي، حيث كان الزوار يتنقلون بين قسمي المعرض عبر الشارع.

لا شكَّ في أن تزايد عدد دور النشر المشاركة في المعرض، إنما هو ناجمٌ عن تزايد عدد الزوار من الجنسين، ومن مختلف الأعمار، والإقبال النهم على شراء الكتب من مختلف الدور، ومن مختلف الاختصاصات، ما حقَّق أرباحاً مجزية للناشرين، ليس فقط من مبيعاتهم في المعرض، بل من كمية الكتب التي لا تباع في المعرض، والتي شكّلت ذخيرة لاستمرار عملهم على مدار العام وحتى المعرض التالي، فقد كانت مكتبة الأسد تقدم لهم تسهيلات كبيرة لإدخال الكتب إلى سورية من خلال بوابة المعرض.

كان الازدحام في المعرض شديداً، وكم من مرة سمعنا فيها هذه العبارة: «ما في محل تحط قدمك»، إلى درجة أن باب المعرض كان يُغلق لبرهة قصيرة ريثما يخرج بعض الزوار، فيصبح بالإمكان استيعاب المزيد. ولم يكن قدوم الزوار إلى المعرض للفرجة وتمضية الوقت فقط، بل لشراء الكتب، وكان مشهداً مألوفاً رؤية طوابير الزوار حاملين الكتب المشتراة ومصطفين أمام طاولات المعرض عند باب الخروج، حيث يجلس موظفو المكتبة للتأكد من مطابقة الفواتير مع الكتب المشتراة، ففي حالات ازدحامٍ كهذه قد تحدث أخطاء في أثناء عملية البيع.

وكان المشهد الأكثر لفتاً للنظر هو التهافت الشديد للحصول على توقيع كتاب من مؤلفه، فالكتاب الموقَّع له قيمة إضافية لا تعادلها أي قيمة، وما المشهد الفريد الذي رأيناه في اليوم ما قبل الأخير من معرض الكتاب الحادي والثلاثين عام ٢٠١٩، عند توقيع كتاب: «الرجل الذي لم يوقع»، من تزاحمٍ وتدافعٍ لتوقيعه من مؤلفته الدكتورة بثينة شعبان؛ إلا صورة طبق الأصل لما كان يحدث سابقاً.

غير أن الحرب الظالمة التي يشنّها الأعداء على سورية منذ عام ٢٠١١، قد أثّرت كثيراً في حركة الكتاب، تأليفاً وطباعةً وتوزيعاً، كما أثّرت على القطاعات الأخرى، فتوقّف معرض الكتاب حتى عام ٢٠١٦، حيث أعيد افتتاحه في حديقة المكتبة، وجرت حتى الآن أربع دورات آخرها المعرض الحادي والثلاثون الذي اختتم بتاريخ ٢٠١٩/٩/٢٢، ولكن بعدد دور نشرٍ أقل، وزوارٍ أقل، وأرباحٍ أقل.